الشيخ الامام عبد الله الشرقاوى

وهو [1] الامام الشيخ عبد الله بن حجازى بن إبراهيم الشافعى الأزهرى الشرقاوى ، ولد فى قرية الطويلة من ضواحى بلبيس بالقرب من قرية القرين فى محافظة الشرقية سنة ١١٥٠هـ ومنها أخذ نسبته .

---

(١) **نقلا عن** كتاب مشيخة الأزهر تأليف الاستاذ على عبد العظيم

حفظ فى طفولته القرآن الكريم فى القرين حيث نشأ بها ، وتطلع إلى المعرفة ، فشد رحاله إلى الجامع الأزهر حيث درس على كثير من أعلام علمائه مثل الشهاب الملوى والشهاب الجوهرى ، والعلامة الشيخ على الصعيدى والشيخ الامام الحفنى ، والشيخ الامام الدمنهورى ، ومال بفطرته الطبيعية إلى التصوف فتلقن مبادىء الطريقة الخلوتية على الامام الشيخ الحفنى فاستولى عليه التدله والذهول والهيام كما يسميه الصوفية بالجذب وتاب الى نفسه بعد أيام ، ثم اتصل بالصوفى الشهير العارف بالله الشيخ محمود الكردى ولازمه ، فرباه وأرشده وقطع به مدارج الطريق ، ولقنه أسراره فأصبح فى مقدمة المريدين وطليعتهم .

وقد تقلبت به الأحوال فتجرع مرارة الفقر كما ذاق حلاوة اليسر ، وعاش فى ظلال الخمول والنسيان كما عاش تحت أضواء الجاه والسلطان ، فاستفاد خبرة وتجربة ضمها إلى ما استفاده من علم وعرفان وإلى ما أحرزه من مجاهدة وروحية فى مجال السلوك الصوفى ، فصقلته التجارب وهذبته المعارف وزكته النفحات .

وبهذا أنال الصدارة فى دنياه ، وفاز بالزلفى إلى الله فى أخراه .

ذكر الجبرتى فى تاريخة أنه كان فى قلة من خشونة العيش وذاق مرارة الحياة فلا يطبخ فى داره الإنادرا ، وبعض معارفه كانوا يواسونه ويرسلون إليه الصحفة من الطعام أو يدعونه ليأكل معهم .. ولما عرفه الناس واشتهر ذكره وصله بعض تجار الشام وغيرهم بالهدايا والصلات ، فراجت حاله . وتجمل بالملابس .... ولما توفى الشيخ الكردى كان من جملة خلفائه وضم إليه أشخاصا من الطلبة والمجاورين الذين يحضرون دروسه ، يأتون إليه فى كل ليلة يذكرون معه ويعمل لهم فى بعض الأحيان ثريدا ... ثم اشترى له دارا وساعده فى ثمنها بعض من كان يعاشره من المياسير ، واستمر على حالته حتى مات الشيخ أحمد العروسى فتولى بعده مشيخة الجامع الأزهر ، فزاد فى تكبير عمامته وتعظيمها ، حتى كان يضرب بعظمها المثل ... « وكانت ولايته هذا المنصب بإشارة من الشيخ محمد بن احمد الجوهرى صاحب النفوذ الكبير »

وفى حياته ألمت بمصر أحداث جسام ، حملته فى غمارها إلى القمة وكادت تقذف به إلى الأعماق ، وتورده موارد الهلاك ، لولا ما كان يتمتع به من مكانة علمية ومنصب جليل وقيادة شعبية ، رفعته إلى الزعامة الوطنية ، وجعلته متأثرا بهذه الأحداث ومؤثرا فيها إلى حد كبير .

هذه الأحداث تتعلق بالحملة الفرنسية على مصر ، وسنشير بعد قليل إليها ، ولما تولى مشيخة الأزهر تعرض لأحقاد ومؤامرات عديدة شأنه فى هذا شأن كل من ولى منصبا كبيرا تتطلع إليه الأبصار ، وتتعلق به الأهواء والرغبات ، فقد كان الشيخ مصطفى الصاوى يتطلع إلى هذا المنصب ويرى نفسه جديرا به ، فلما أفلت منه تشبث بالتدريس فى المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الامام الشافعى وهو منصب كان موقوفا على من

يلى مشيخة الأزهر ، ويتناول فى مقابله مبلغا كبيرا من المال ، وكان الشيخ أحمد العروسى شيخ الأزهر السابق قد تعرض لمثل هذا الموقف حيث نازعه فى التدريس بهذه المدرسة الشيخ محمد المصيلحى الضرير الذى كان يرى نفسه أحق بالمشيخة من العروسى ، فتنازل العروسى له عن الدراسة بها حسما لدواعى الخلاف ، ولما مات المصيلحى تعفف العروسى عنها وأجلس فيها الصاوى ـ كما يقول الجبرتى ـ وحضر درسه فى أول ابتدائه ، لكونه من خواص تلامذته . توفى العروسى وولى الامام الشرقاوى المشيخة ، استقر الرأى على إبقاء الصاوى فى التدريس بالمدرسة الصلاحية ، ولكن بعض حاشية الشيخ الشرقاوى حرضوه على إبعاد الصاوى عن هذه المدرسة ، وألقوا فى روعه أن مشيخته لاتتم إلا بالتدريس فيها ، وظلوا ينفثون فى روعه هذه الفكرة بضعة أشهر وكان الشيخ الامام يثق فى نصيحتهم إياه ، فتحدث فى ذلك مع الشيخ محمد بن الجوهرى وأيوب بك الدفتردار ، فوافقاه على التمسك بحقه ، فذهب فى جماعة كبيرة إلى المدرسة وألقى بها درسا ، فغضب الشيخ الصاوى واتصل بأصدقائه من كبار المماليك فعقد مجلسا فى بيت الامام الشرقاوى حضره الصاوى وأعوانه ، فقال الشيخ الامام : اشهدوا ياجماعة أن هذه الوظيفة استحقاقى وقد تنازلت له عنها ، فقال له الصاوى : ارجع أما الآن فلا ، ولاجميل لك الآن فى ذلك ، وحدث أخذ ورد ، وانتهى المجلس إلى ترك التدريس للشيخ الصاوى وظل يقوم بهذه المهمة حتى مات ، فقام الشيخ الامام بالتدريس فيها دون منازع .

والتدريس موهبة علمية تستولى على قلوب كثير من كبار العلماء ، فيرون فى التدريس زكاة روحية عن علمهم ، وأداء لحق الله وحق العباد عليهم وإشباعا لهوايتهم العلمية وموهبتهم البلاغية ولاتحول المناصب الكبرى بينهم وبين أداء هذا الواجب الكريم .

وفى العصر الحديث يقوم مقام التدريس عند أصحاب هذه المناصب إلقاء المحاضرات العامة ، والكتابة فى الصحف والمجلات ، وإذاعة الأحاديث فى الاذاعات المسموعة والمرئية « التليفزيون »

وبعد عدة أشهر طمع القائمون على المدرسة فى المكافأة الموقوفة على من يقوم بالتدريس فيها ، فلم يدفعوا شيئا للشيخ الامام ، وأخذوا يدسون له عند الباشا الوالى حتى أوغروا صدره عليه ، وهم الوالى بعزله عن المشيخة ثم أمره أن يلزم داره ولايبارحها فتدخل القاضى ـ ومنصب القضاء كان موقوفا على الأتراك ـ عند الوالى فأزال مابينهما من جفاء ، وتنازل الشيخ الامام عن التدريس ، وأناب عنه الشيخ محمد الشبراوى فأراح واستراح ، ولكنها كانت راحة موقوته لأن الراحة لايمكن أن يظفر بها من يتصدرون للقيادة وماتفرضه عليهم من أعباء جسام ، وماتعطيه لهم من جاه وسلطان ، وماتستدعيه من منافسات وأحقاد .

فما كادت فتنة المدرسة الصلاحية تزول حتى فكر أعداء الشيخ الامام فى الكيد له ، وتذكروا منصبا كبير خاصا بالأزهر كان يتيح لمن يشغله السيطرة على شئون الأزهر ، هذا المنصب يقوم به « ناظر الأزهر » فقد كان الخليفة العزيز بالله ووزيره ابن كلس ، يشرفان على جميع شئون الأزهر ويعاونهما خطيب المسجد ، وظل الأزهر موكولا إلى أحد الحكام أو الأمراء .

وفى عهد الدولة الأيوبية أهملت الدولة أمر الأزهر ، لأنه كان فى نظرها يمثل الدعوة الشيعية ، لأن المذهب الشافعى ، وهو المذهب الرسمى للدولة - يحتم الاقتصار فى صلاة الجمعة على مسجد واحد جامع فى المدينة ، فاستبدل الأيوبيون بالأزهر غيره . وفى عهد المماليك استرد الأزهر مكانته ، فأسند الملك الظاهر برقوق سنة ٧٨٤م ولاية النظر على الجامع الأزهر إلى الطواشى بهادر مقدم المماليك السلطانية ... وفى عهد السلطان المؤيد جعل نظارة الأزهر إلى الأمير سودوب القاضى حاجب الحجاب ، ثم عهدبها بعده إلى شمس الدين محمد الماجورى أحد كبار المشتغلين بتجارة الجواهر ، وكان هذا الاشراف مقصورا على الناحية الادارية مما يتعلق باصلاحه وتعميره والانفاق عليه وتعيين الموظفين اللازمين لادارته .. فلما اقتضت العناية بالأزهر إنشاء شيخ له يتولى جميع شئونه العلمية والادارية والروحية لم يعد هناك مبرر لقيام « ناظر » يشرف على شئونه الادارية ، وكان للشيخ أن يختار من يعاونه فى الاشراف على هذه الشئون .

تذكر أعداء الشيخ الامام منصب النظارة ، فأجمعوا أمرهم على إحيائه مكايدة منهم له ، فتألف حزب بزعامة الشيخ محمد الأمير ، اتصل بكثير من ذوى الرأى ، وأعلن الجميع تعيين الشيخ محمد الأمير ناظرا للأزهر ، وكتبوا تقريراً بذلك أقره القاضى العثمانى وختم عليه الشيخ السادات والسيد عمر النقيب وكبار أعوانهما من مشايخ الأزهر ، وقام الشيخ الامير بنشاط كبير فى الاشراف على الخدمة فى المسجد بنفسه وبمساعدة ابنه ، وبذل عناية كبيرة بنظافته وتنظيمه وإنارته ، ولكن الشيخ الشرقاوى استطاع بحكمته ولباقته وسماحته أن يسمو فوق هذه المنازعات .

أما الحملة الفرنسية على مصر ، فقد تمت فى عهد الشيخ ولقيت مقاومة شديدة من الشعب تحت قيادة علمائه الأعلام ، فأبلى الشيخ بلاء حسنا فى هذه المقاومة ولقى فيها مشقة وعناء ، فكان يطفو على أمواج هذه الثورة إلى القمة ويكاد ينحدر منها إلى القرار .
ومن الخير أن نبدأ بذكر نبذه عن الحملة الفرنسية ، ثم نتبعها بذكر ماحمله الشيخ

الامام فى هذه الثورة من أعباء جسام أبلى فيها وابتلى بها فأثر فيها وتأثر بها ، وأدى واجبه العلمى والوطنى بقدر ما أسعفته الظروف .

الحملة الفرنسية

بعد الحروب الصليبية استيقظت أوربا من سباتها العميق ، فاقتبست الحضارة الاسلامية ، واستغلت الحضارة الاغريقية والرومانية وتخلصت من معظم القيود والأغلال التى كبلتها مئات السنين ، على حين تخلفت الأمم الاسلامية وتمزق شملها وغطت فى سبات عميق .

ففى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع ، تطلعت دول أوربا إلى استغلال الشرق العربى وما تضمه دوله من ثراء عريض ، وجذبها إليه أنه الطريق للسيطرة على التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وأطمعهم فى هذا ضعف الخلافة العثمانية صاحبة السيادة على الدول العربية ، وسهل لهم هذه المهمة أن مصر التى وقفت صامدة كالجبل الشامخ أمام الغزوات الصليبية . أصابها الضعف والتخلف وأصبحت خاضعة لقوى عديدة متضاربة مزقتها شر تمزيق ، فقد كان الحكم للدولة العثمانية ويمثلها وال تركى تتم توليته عن طريق تقديم الرشاوى الكثيرة لحاشية الخليفة ، فإذا تم تعيينه حرص على أن يعوض أضعاف أضعاف ماقدمه من رشاو ، لأنه يعلم أن منصبه مؤقت لايكاد يتعدى عاماً أو بعض عام ، وفى أحيان قليلة جدا بضعة أعوام ، حتى يقدم غيره من الرشاوى أضعاف ماقدمه الوالى السابق ، وكانت الدولة العثمانية حريصة كل الحرص على سرعة تغيير الولاة حتى لايطمع أحدهم فى الاستقلال بولايته ، وكان الجنود العثمانيون فى مصر يقلدون الحاكم فى السلب والنهب وضعف يده عن السيطرة عليهم ، فكلاهما فى الجريمة سواء وزاد الطين بلة أن أمراء المماليك كانوا يتحكمون فى طبقات الشعب فى نظام إقطاعى يشبه نظام الأشراف والنبلاء فى الدول الصليبية ، فكانوا هم الحكام الفعليون للشعب ، وكثيرا ماكانوا يصطدمون بالوالى العثمانى فينزل على حكمهم ، وقد يعزلونه فيولى الخليفة العثمانى واليا سواه .

وكان هؤلاء المماليك يتنافسون فى استغلال طبقات الشعب ونهب مايستطيعون من أموال ، ومصادرة تجارته ،وكثيرا ما يختلفون فيما بينهم فيسرقون طبقات الشعب معهم

فى حروبهم المدمرة وفى مؤامراتهم ودسائسهم التى لاتكاد تنتهى حتى تنشب بينهم من جديد .

وتفاقم الخطب حينما تجمع الأعراب ، وفرضوا سيطرة طاغية على الأقاليم ، واستباحوا النهب والسلب وقطع الطرق ، فقد سيطر همام بن يوسف زعيم عرب بنى حبيب على معظم أقاليم الوجه البحرى ، ولم تكن الدولة العثمانية يهمها إلا أن تنال الجزية السنوية المفروضة على البلاد ، ولهذا أصدر السلطان سليم قرارا يضم جميع الأراضى الزراعية إلى ملك الدولة ، ثم تقسيمها وطرحها فى المزايدة بين الراغبين فيها نظير مبلغ سنوى يدفعه الملتزم للدولة ، وفى مقابل ذلك يحل محل الحكومة فى السيطرة والامارة على الأقاليم التى أخذ التزامها ، فيجنى من الزراع ماشاء متى شاء فى جميع أوقات العام ، وسيطر أمراء المماليك على الأقاليم عن طريق الالتزام .

ولهذا كان الشعب ممزقا جريحا أشبه بالعبيد الأرقاء ، وحينئذ تطلع الشعب إلى علمائه الأعلام بوصفهم الحراس على تطبيق الشريعة الاسلامية وإقرار العدالة الاجتماعية .

ومن هنا أصبحت لهم قيادة شعبية استطاعوا بها أن يدفعوا المظالم عن الشعب أحيانا . وإن كانت موجات الطغيان تتوالى فى معظم الأحيان .

هذا كله أطمع الفرنسيين فى غزو مصر وضمها إلى أملاكهم ، وكان على رأس فرنسا فى هذا الحين القائد الشهير نابليون بونابرت فدفعته مطامعه ومنافسته لانجلترا إلى السيطرة على مصر ، وكان على علم تام بظروفها ، فقاد حملة حربية استولت على الاسكندرية وزحف إلى القاهر وكان قد أعد منشورا مترجما إلى اللغة العربية وقد وزعه على نطاق واسع ، وكان يتظاهر فيه بالاسلام وبحبه للمصريين وصداقته للدولة العثمانية صاحبة الحق الشرعى فى الخلافة على المسلمين ، ويعلن فيه أنه جاء لاقرار الحق ونشر العدالة وتخليص المصريين من طغيان المماليك وظلمهم واستبدادهم ، قال فى أوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم لا إله الا الله ، لا ولد له ولا شريك له فى ملكه ، من طرف الجمهور الفرنساوى المبنى على أساس الحرية والتسوية السر عسكر[1] الكبير

---

(١) السرعسكر كلمتان أولاهما فارسية الأخرى عربية ومعناها : القائد أو رئيس الجند

بونابرته ... ويعلن فيه أنه ماجاء إلا لتأديب أمراء المماليك ثم يقول : « إننى ماجئت إليكم إلا لكى أخلص دينكم وحقكم من يد الطاغية ، وإننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه محمدا والقرآن العظيم ... وقولو أيضا أن الناس متساوون عند الله ثم يتجه إلى العلماء قائلا لهم : « أيها القضاة والمشايخ والأئمة .. قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون خالصون لذلك قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا ، والذى كان يحث دائما النصارى على محاربة الاسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالرية [١] الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين .. » ثم يظهر موالاة الفرنسين للدولة العثمانية فيقول : « والفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا المحبين الأخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ، وبالمقلوب[٢] المماليك امتنعوا عن إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره ..... » وختم المنشور بأن .. الواجب على المشايخ والقضاة والأئمة أن يلازموا وظائفهم ، وعلى كل واحد من أهل البلد أن يبقى فى مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة والمصريين بأجمعهم ليشكروا فضل الله سبحانه وتعالى على انقراض دولة المماليك قائلين بصوت عال : أدام الله إجلال العثمانى[٣] أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية » [٤].

وعلى الرغم مما قاساه المصريون من مظالم المماليك وطغيانهم وجبروتهم ، وعلى الرغم مما عانوه من تعسف وتجبر جنود الأتراك وقسوة وجشع الولاة العثمانيين ، فإنهم لم يستجيبوا لنداء الفرنسين لأن رابطة العقيدة الاسلامية كانت أقوى من جميع الروابط ، فضلا عن أن الشعب المصرى كان قد بدأ يتيقظ من سباته العميق ويعرف حقوقه المشروعة فكان يطالب بها ، ويستطيع أن يرد الطغاة من المماليك والأتراك عن طغيانهم أحيانا بزعامة علمائه الأعلام من رجال الأزهر الشريف ، وإذا تراخى بعض العلماء لظروف اضطرارية فى مقاومة الفرنسيين ، كان الشعب يرغمهم إرغاما على العودة إلى مقاومة الطغيان ، وكان الشيخ الشرقاوى قد نال ثقة الشعب به وظفر بزعامته قبل الحملة الفرنسية حينما وقف فى وجه الطغاة الظالمين من أمراء المماليك ، فلما جاءت الحملة الفرنسية كان

---

(١) فرسان القديس يوحنا الذين احتلوا مالطة وكانوا من قبل مشتركين فى الحروب الصليبية وأصل الكلمة مقتبس من Lavalliere اى الفارس .

(٢) اى مع العكس من ذلك .

(٣) الدولة العثمانية .

(٤) راجع المنشور بتمامه فى كتاب مظهر التقديس » بذهاب دولة الفرنسيس للجبرتى مطبعة الرسالة سنة ١٩٦٩ ص ٢٨ ـ ٣١

فى مقدمة الزعماء المقاومين للاحتلال الأجنبى ، تارة عن طريق المقاومة الشعبية ، وتارة عن طريق السياسة والمطاولة ، وكان له فيهما المقام المحمود .

زعامة الشرقاوى

من المواقف الكريمة التى رفعت الامام الشرقاوى إلى مرتبة الزعامة الشعبية ، موقفه فى مقاومة طغيان محمد بك الألفى الحاكم المملوكى الطاغية وكان يشاركه فى الحكم مراد بك وابراهيم بك ، فقد حضر أهالى بلبيس إلى الشيخ الامام الشرقاوى وشكوا إليه من طغيان محمد بك الألفى حيث أرسل أتباعه إليهم وطلبوا منهم أموالا لاطاقة لهم بها ، وهددهم بالتنكيل والتعذيب إذا لم يقدموا إليهم مايطلبون ، واستغاثوا بالشيخ فغضب لغضبهم وحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ وكان قد اتصل بمراد بك . وإبراهيم بك فلم يستجيبا له ـ فأغلقوا الجامع وأمروا الناس باغلاق الأسواق والحوانيت ثم ركبوا فى اليوم التالى واجتمع عليهم خلق كثير من العامة فذهبوا إلى بيت الشيخ السادات ... فأرسل إبراهيم بك إليهم أيوب بك الدفتردار فحضر إليهم وسلم عليهم وسألهم عن مرادهم فقالوا : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال المكوسات[1] التى ابتدعتموها وأحدثتموها ، فقال : لايمكن الاجابة إلى هذا كله ، فاننا إن فعلنا هذا ضاقت علينا المعايش والنفقات ، فقالوا له : ليس هذا بعذر عند الله ولا عند الناس ، وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء المماليك ؟ والأمير يكون أميرا بالاعطاء لا بالأخذ ، فوعدهم بتبليغ رأيهم وانصرف ، ولكنه لم يعد إليهم بالجواب ، وانفض المجلس ، وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر واجتمعت جماهير الشعب ، وباتوا بالمسجد مزمعين على الثورة وأشفق أمراء المماليك والوالى ، فأرسلوا إليهم من يفاوضهم وناب عن الشعب فى هذه المفاوضة الشيخ الامام والسادات والنقيب والبكرى والشيخ الأمير ، وطالت المفاوضات وتمسك المشايخ برأيهم وانتهى الأمر بنزول الأمراء على حكم المشايخ فى رفع المظالم والحكم بالعدل طبقا لأحكام الشريعة الغراء ، وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس وأن يرسلوا الأموال الموقوفة على الحرمين وكانوا قد احتجزوها لأنفسهم ، وتعهدوا أن يسيروا فى الناس سيرة حسنة وأنهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم ، وكان القاضى حاضرا فكتب حجة عليهم بذلك وشهد عليها الوالى ووقع عليها إبراهيم بك

---

(١) المكس جمعه مكوس هو الضريبة .

وأرسلها إلى مراد بك فوقع عليها وانجلت الفتنة وعاد المشايخ وحول كل منهم جمهرة عظيمة من العامة ، وهم ينادون أن جميع المظالم والضرائب مرفوعة وفرح الناس فرحا عظيما[١] »

وهذه الوثيقة يشبهها بعض المؤرخين بوثيقة إعلان حقوق الانسان كما يراها البعض وثيقة دستورية تؤكد أن الأمة ـ ممثلة فى علمائها ـ مصدر السلطات ، وإن كان الحكام بعد قليل قد عادوا إلى ممارسة الظلم والطغيان فلم يمض على ذلك نحو شهر حتى نزل مراد بك إلى دمياط وفرض عليها الضرائب الباهظة ، مما مكن الفرنسين من غزو البلاد لأن الشعب كان لايثق فى هؤلاء الأمراء .

فى غمار الثورة

ماكاد الفرنسيون يستولون على القاهرة بعد عدة معارك حتى أصدروا منشورا ثانيا بمعنى منشورهم الأول ، يؤكدون فيه أن الهدف من الحملة الفرنسية هو حماية البلاد من ظلم المماليك ، وأن نابليون يؤمن الناس على أموالهم وعلى حرياتهم وعلى مباشرة عباداتهم ، ويعلن فيه أنه يحترم نبى الاسلام ويقدسه ويقرر أن « المحافظة على الأمن من المسائل التى لاتحتمل تأخيرا فسيكون هناك ديوان مؤلف من سبعة أعضاء يجتمعون فى الجامع الأزهر يتصل اثنان منهم دائما بالقائد ، ويتخصص أربعة منهم للمحافظة على الأمن ومراقبة شئون الشرطة » وعقب هذا طلب مقابلة وفد من علماء الأزهر ، وكان الشيخ الشرقاوى "والسيد السادات" والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف خارج القاهرة ، فقابله اثنان من كبار العلماء هما الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى فأحسن استقبالهما وطلب أن يعود كبار العلماء الغائبين إلى القاهرة ، وأكد أنه لن يصيبهم سوء ، وأعلن لأعضاء الوفد عن عزمه على إنشاء بتأليف ديوان لأجل راحة العلماء وراحة الرعية ولتنفيذ أحكام الشريعة ، ثم أصدر قرارا بتأليف ديوان يحكم مدينة القاهرة مؤلف من المشايخ السادات والشرقاوى والصاوى والبكرى والفيومى والعريش وموسى السرسى والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف ومحمد الأمير[٢] وطلب منهم أن ينتخبوا رئيسا لهم

---

(١) **انتهى ملخصا** عن الجبرتى « عجائب الآثار » ج ٤ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧

(٢) **رفض ثلاثة من هؤلاء** العلماء قبول هذا المنصب لأنهم رأوا فيه اعترافا بالولاء لهؤلاء المستعمرين ، وقادوا الثورة **ضد هذه الحملة فيما** بعد وهم الشيخ السادات وعمر مكرم والشيخ الأمير ، فاستبدل بهم الفرنسيون المشايخ الدمنهورى **والشبراخيتى والدواخلى** .

يمتثلون أمره وإشارته فاختاروا الامام الشيخ الشرقاوى ، وحرص بونابرت على التودد إلى مشايخ الديوان ، وكلهم من كبار العاماء وعلى المبالغة فى احترامهم ، وأمر حرس الشرف من الجنود الفرنسيين المرابطين أمام مقر القيادة أن يؤدوا التحية العسكرية بالسلاح لعلماء الأزهر إذا جاءوا إلى مقر القياده ، فاذا دخلوا خف لاستقبالهم رجال التشريفات والمترجمون للحفاوة بهم ولقيادتهم إلى الصالون الرئيسى فى القصر وتقدم لهم المرطبات والقهوة ، فاذا فرغوا من تناولها دخل عليهم بونابرت ورحب بهم ، وجلس وسطهم متودداً إليهم متناقشاً معهم عن طريق المترجم فى آيات قرآنية ، طالبا منهم شرحها مظهراً الاحترام للشريعة الاسلامية ورسولها الكريم ، وبهذا كسب ثقتهم به ، ثم أصدر قراراً بتخصيص جواد لكل منهم .

وكان استعمال الخيل من قبل مقصوراً على الأتراك والمماليك ، والبغال خاصة بالعلماء ، أما الحمير فتركبها العامة .

ثم بالغ في الحفاوة بالأعياد الاسلامية وبخاصة المولد النبوى تألفاً للعامة فأمر بأن يشترك الجيش فى الحفاوة بهذه الأعياد بإطلاق المدافع والألعاب النارية وأن تشترك الموسيقى العسكرية فى الترفيه عن الجماهير ، ثم أصدر قراراً بتعيين السيد خليل البكرى نقيباً للأشراف وذهب بنفسه لزيارته وخلع عليه خلعة ثمينة ، ثم عين الشيخ محمد المسيرى كبير علماء اسكندرية رئيساً لديوانها ، وطلب من الجنرال مارمون أن يقابله وأن يخبره أن بونابرت يجتمع ثلاث أو أربع مرات كل عشرة أيام مع كبار المشايخ ورؤساء الأشراف الذين ينحدرون من الدوحة النبوية ثم قال فى رسالته : « إنه لايوجد من هو أكثر منى اعتقادا فى طهارة وقدسية الديانة المحمدية » ثم كتب إلى الشيخ المسيرى رسالة يقول فيها : « تعلمون التقدير الخاص الذى شعرت به نحوكم منذ اللحظة الأولى التى عرفتكم فيها ، إنى أرجو الا يتأخر الوقت الذى أستطيع فيه جمع كل الرجال العقلاء والمتعلمين فى البلاد وإقامة نظام موحد يقوم على مبادىء القرآن التى هى وحدها المبادىء الحقة والتى هى وحدها قديرة على إسعاد الناس »

ولكن الجماهير المصرية أدركت بفطنتها وتجاربها العديدة أن الأمر إنما هو إدعاء ظاهرى قائم على الخداع والنفاق لجذب الشعب وإقناعه بقبول الاستعمار الفرنسى والأذعان له .

ولهذا لم تحدث هذه الدعاية أثارها الا فى عدد قليل من أفراد الجماهير . والمعروف

أن الثورة الفرنسية انحرفت عن الديانات السماوية وأحلت محلها عبادة العقل ممثلا فى صورة سيدة ، ونابليون هو سليل هذه الثورة ،ولم يكن ذا عقيدة دينية سليمة ، وكانت آثار الحروب الصليبية ودور فرنسا فيها لايزال عالقا بأذهان المصريين .

فلم يروا نابليون بونابرت إلا غازيا صليبيا أوربيا وفد لاستعمار بلادهم وأن دعوته الاسلام إنماً هى لخداعهم وخداع الخلافة الاسلامية التى أثخنتها الجراح .وكانت عواطف الشعوب الاسلامية متعلقة بهذه الخلافة ، التى تمثل العالم الاسلامى وتوحد كلمته وتبرز قوته أمام العالم كله .

ولهذا أعلن الشعب على الحملة الفرنسية حربا شبيهة بما نسميه الآن حروب العصابات أو حروب الاستنزاف .

وقد عبر نابليون عن هذا فى مذكراته بقوله : « إن الجيش الفرنسى قد استولى على الاسكندرية والقاهرة وانتصر فى معركة شبراريس وامبابة » ولكن موقف الفرنسيين لم يكن مستقرا بل ظل مزعزعا ، ولم يحتمل المصريون وجود الفرنسيين فى بلادهم إلا كرها .. وهم ـ بوصفهم مؤمنين مسلمين ـ لايخفون حسرتهم واستياءهم من انتصار غير المؤمنين .. وكانوا يعتبرون أنه من العار والخزى أن تسقط مصر فريسة فى أيدى الفرنسيين ، وكان أئمة المساجد يختارون فى تلاواتهم للقرآن الكريم الآيات التى تحض المؤمنين على جهاد الكافرين ، إن الجيش الفرنسى ـ على الرغم من انتصاراته ـ كانت تحيط به الأخطار ، لأنه كان يصعب عليه أن يصمد فى حرب دينية ، وكان المصريون يعبرون عن ادعائه لمناصرة الاسلام بأنه خداع ومخاتلة ريثما يتملك ، واما هو فنصرانى ابن نصرانى ، كما قرر هذا نقولا ترك[1] وقرر أيضا فى مذكراته « إن المصريين لم يستطيعوا اطلاقا تحمل الفرنسيين بسبب اختلاف الدين واللغة والرأى ، فضلا عن عداء قديم متأصل بين الفرنسيين والمصريين ، يرجع الى أيام لويس التاسع ملك فرنسا حين بلغ المنصورة ، وحاول الاستيلاء عليها فى الحروب الصليبية[2] وزاد الثورة المصرية اشتعالا منشور أصدره الخليفة العثمانى سليم الثالث بإعلان الحرب على فرنسا سنة ١٧٩٨م ودعا المصريين الى الثورة على الفرنسيين وإعلان الجهاد الدينى على الفرنسيين

---

(١) ترجمة مذكرات نقولا ترك ص ٦٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤ .

الذين ينكرون وحدانية الله ورسالة محمد ، بل ينكرون وجود الله ويسخرون من جميع الديانات ولايعتقدون فى البعث والنشور ، ويرون الكتب السماوية مجموعة من الأكاذيب ، ثم أعلن إعداد الجيوش الجرارة والأساطيل الضخمة لتحرير المصريين من قبضة الكافرين[1] وألهب الثورة فى نفوس المصريين مابلغهم عن تحطيم الانجليز للأسطول الفرنسى فى موقعة أبى قير ، وفرضهم حصارا بحريا يمنع وصول النجدات الفرنسية إلى جيش الاحتلال ، هذا إلى عدة عوامل أخرى لايتسع لذكرها المقام .

وقد انقسم علماء الأزهر إزاء الثورة الفرنسية إلى فريقين : فريق ناوأ الثورة الفرنسية ورفض التعاون معها بزعامة السيد الشيخ محمد السادات ، وفريق هادن الثورة إلى حد ما بزعامة الشيخ الامام الشرقاوى .

أما السادات فقد رفض قبول عضوية الديوان منذ تشكيله ، وكان نابليون يتودد إليه ، ويرغب فى جذبه للتعاون وكان يتردد على بيته ويقدم إليه الهدايا توجسا منه ، لأنه كان يعتقد أنه على صلة بأمراء المماليك ورجال الدولة العثمانية ، وكان يعرف مكانته الشعبية ثم عينه رئيسا للجنة النظر فى المظالم ، ولما قامت الثورة ضد الفرنسيين تزعمها الشيخ السادات ، وبعد إخماد الثورة فكر نابليون فى إعدامه ، ولكنه وجد أن إعدامه ستكون له نتائج وخيمة ... وظل موضع الريبة حتى قامت الثورة للمرة الثانية ضد الفرنسيين وأسهم فيها الشيخ فاعتقله الفرنسيون ، وأنزلوا به ألوانا شتى من التعذيب والتنكيل على الرغم من شيخوخته وكبر سنة ، وفرضوا عليه أموالا طائلة عجز عن أدائها ، وظل عرضة للعذاب والنكال وأحضروا زوجته لتشاهد زوجها الكهل وهو يتلقى الضرب المبرح فى الصباح والمساء .[2] . وقد كان هذا التنكيل السبب الكبير فى اغتيال الجنرال كليبر قائد عام الحملة الفرنسية فيما بعد ، أما الفريق الثانى فقد رأى مهادنة الحملة الفرنسية ، ويعلل الشيخ الامام الشرقاوى زعيم هذا الفريق جنوحه إلى المهادنة فى كتابه « تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين » بعجز الأهالى عن مقاومة الفرنسيين بسبب « هروب المماليك الذين معهم آلات القتال » وحمله على المهادنة اعتقاده أنه بوصفه زعيم الديوان يستطيع أن يدير الأحكام طبقا للشريعة الاسلامية ، وأن يمنع الظلم والعدوان ويكف أذى الفرنسيين عن الشعب حتى تتحرك الخلافة العثمانية لانقاذ

---

(١) صور من دور الأزهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى ص ٧٠ .

(٢) ظل هذا الشيخ الجليل موضع الريبة والتعذيب حتى انتهت الحملة الفرنسية ورحلت عن مصر .

الشعب من استعمار الفرنسيين ، ولعل الأمل كان يراوده فى جذب نابليون وجيشه الفرنسى إلى الاسلام بعد أن تكرر إعلان نابليون إعجابه بالاسلام وحبه لنبى الاسلام ، وبخاصة بعد أن كتب منشورا بعد عودته من الشام أعلن فيه أنه « يحب دين الاسلام ويعظم النبى عليه الصلاة والسلام ، ويحترم القرآن ويقرأ منه كل يوم بإتقان ... ومراده أن يبنى مسجدا عظيما بمصر لانظير له فى الأقطار . وأن يدخل فى دين النبى المختار عليه أفضل الصلاة والسلام » وكان نابليون كثيرا مايعلن أمام مشايخ الأزهر رغبته فى اعتناق الاسلام ، ويذكر أن فى استطاعته أن يحمل أفراد الجيش الفرنسى على اعتناق الاسلام بناء على أمر يومى بسيط يصدره لهم ، ثم طلب منهم فى إحدى الجلسات أن يصدروا فتوى يدعون فيها الشعب لأن يقسم له يمين الطاعة والولاء . فتصدى له الشيخ الامام طالبا منه تنفيذ وعده باعتناق الاسلام وحبب إليه هذه الخطوة وزينها فى قلبه ، وقال له : إنه إذا اعتنق الاسلام انضوى تحت لوائه مائة ألف عربى فى البلاد العربية واستطاع أن يفتح بهم الشرق ، فذكر نابليون أن هناك عقبتين تحولان بينه هو وجنوده وبين الاسلام ، هما تحريم شرب الخمر فى الاسلام ، وعملية الختان ، فقال له مشايخ الأزهر إنه من الممكن التجاوز عن هذين الشرطين بصفة مؤقتة ، فراوغهم نابليون وطلب منهم مهلة سنتين يعتاد خلالها الجنود التقاليد الاسلامية وبعدها يعتنقون الاسلام .

وكان الشيخ الامام يستغل مكانته فى الشفاعة لدى الفرنسيين لدفع الأذى عن زعماء الشعب وذوى المكانة فيهم ، وكثيرا ما كان يقف فى وجه الفرنسيين مدافعا عن كرامته وكرامة ذوى المكانة الشعبية من المصريين ... وقد كشف الفرنسيون أخيرا أنه يتجاوب مع الثورة ضدهم ، ويمالىء زعماء الثائرين فاعتقلوه فى سجن مع غيره من زعماء الثورة المجاهدين .

ونستطيع أن نسرد بعض مواقفه من الحملة الفرنسية بإيجاز :

أولا : ـ أراد نابليون أن يحمل العلماء شارة العلم الفرنسى رمزا للولاء والطاعة فأعد طيلسانات[1] ملونة بألوان العلم الثلاثة الأبيض والأحمر والأزرق ، وطلب العلماء ، فقام بوضع الطيلسان على كتف الشيخ الشرقاوى فى صورة تكريم له ، فغضب الشيخ

---

(١) **الطيلسان**: **مانسميه الآن « بالشال »** الذى يوضع على الأكتاف .

الامام ، ولم يرع حرمة نابليون ، ورمى بالطيلسان الى الارض « وتغير مزاجه وانتقع لونه واحتد طبعه »

كما ذكر الجبرتى وحاول الترجمان عبثا أن يشرح له ولمن معه من العلماء أن الهدف من هذا إنما هو تكريم للعلماء قائلا : « إنكم صرتم أحبابا لصارى عسكر (قائد العسكر) وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة فى قلوبهم ، فقالوا له : لكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا من المسلمين ... »

ثانيا : ـ فى أثناء محنة السادات تقدم الشيخ الامام الشرقاوى مع بعض العلماء ، وتشفع فى إطلاق سراح زوجة السادات ونقلها من المعتقل الذى كانت تشاهد فيه تعذيب زوجها مبالغة فى التنكيل به وبها ، فلم يسع القائد إلا قبول شفاعته وصحبه وأطلقوا سراحها .

ثالثا ـ مع ريبة الفرنسيين فى الشيخ الامام لم يسعهم إلا اختياره فى مقدمة أعضاء الديوان للمرة الثانية سنة ١٢١٣هـ .

رابعا ـ وفى عيد الاعتدال الخريفى ، أقيمت حفلة كبرى أنعم القائد فيها على الشيخ الامام بخلعة سمور تكريما له وتبجيلا ، وقبلها الشيخ لأنها لم تكن رمزا للحكم ولا للعلم الفرنسى .

خامسا ـ كان نابليون وخلفاؤه يزورون الشيخ الامام فى بيته ، ويبالغون فى الحفاوة به على الرغم من عدم اطمئنانهم إليه نظرا لمكانته العلمية ولقيادته الشعبية ، وكثيرا ماكانوا يذهبون إليه فى مواكب رسمية وطالما قدموا إليه الهدايا والتحف والألطاف ، وأباحوا له ولزملائه ركوب البغال . تمييزا لهم عن العامة[1] .

---

(١) جمع الفرنسيون البغال ومنعوا الشعب من ركوبها ماعدا خمسة من العلماء هم الشرقاوى والمهدى والفيومى والشيخ الامير واحمد ابن محمود ومحرم .

سادسا : ـ كلما اشتدت الثورة ضد الفرنسيين استعان الفرنسيون بجاهه ونفوذه لتهدئة الثورة ، فكان يحاول أن يتوسط وأن يهادن اشفاقا على الشعب الذى لم يكن يملك سلاحا أو قيادة رشيدة ، حتى تعرض فى بعض المواقف لاساءة الظن به من المكافحين المناضلين من المصريين ، وجرى اتهامه ومن معه من العلماء على أفواه الشعب فقالوا : « هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ، ومرادهم خذلان المسلمين وأخذوا دراهم من الفرنسيين ، وشتموهم وأسمعوهم أقبح الكلام[1] »

والواقع أن الشيخ الشرقاوى ومن معه من علماء الأزهر ، استطاعوا فى كثير من المواقف أن يجنبوا شعب القاهرة كثيرا من النكبات ، وأن يرفعوا عنه كثيرا من المظالم وأن يخففوا وقع بعضها ، كما استطاعوا أن يحموا الجامع الأزهر من الهدم والتخريب ، وأن يحتالوا لاجلاء الفرنسيين عنه بعد احتلاله ، ولما عجزوا بعد الثورة الثانية عن حمايته ، آثروا إغلاقه حتى لايكون هدفا للفرنسيين ، وحاوروا الفرنسيين حتى أخذوا منهم موافقة على إغلاقه ـ منعا لهدمه وتدميره ـ الى حين .

ومع أن الثورة الفرنسية ، فتكت بالآلاف من سكان القاهرة ، وفرضت عليهم الغرامات الباهظة ، وقتلت لفيفا من علماء وطلاب الأزهر ، وعذبت بعض زعمائه ، ولكنها مع هذه كله نبهت أذهان العلماء إلى الحضارة الحديثة ، وجذبتهم الى العلوم الحديثة ، وأطلعتهم على مظاهر المدنية والعمران ، فقد كانت تضم طائفة من كبار العلماء فى شتى المعارف والفنون ، كشفوا كثيرا من الآثار المصرية القديمة ، واهتدوا الى فك رموز اللغة الهيروغليفية ، كما درسوا كثيرا من معالم مصر دراسة علمية وسجلوها فى كتاب علمى عظيم هو كتاب « وصف مصر »

كما درسوا موضوع وصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض ، وأجروا تجارب علمية عديدة أمام علماء الأزهر ، وكونوا مجمعا علميا للقيام بالأبحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية والاقتصادية ، وقاموا بإنشاء مطبعة عربية لأول مرة فى الشرق وأخرى فرنسية ، وأصدروا الصحافة لأول مرة فى الشرق أيضا ، مما جعل معظم المؤرخين يصفون هذه الحملة ، بأنها حملة علمية أكثر منها حملة حربية .

---

(١) **مظهر التقديس** ص ٢٢١

ولو انضم الأستاذ الامام إلى الفريق المتطرف بزعامة الشيخ السادات ، لفقد السادات حياته ، وفقد كثير من علماء الأزهر حياتهم وأموالهم ، ولهدم الفرنسيون الأزهر ودمروه تدميرا ، ولشوهوا معالم القاهرة وحطموها تحطيما ، فكان من لطف الله أن قاد جماعة من العلماء الثورة ، وإن هادنها إلى حد ما جماعة آخرون منهم .

على أن الامام الشرقاوى كان ضلعه مع الثوار وإن هادن الفرنسيين فى بعض المواقف مهادنة ظاهرية ، وقد عرف الفرنسيون هذا منه ، فضاقوا به حيناً ، وجاملوه حينا آخر لحاجتهم إليه ، ولقد صاح نابليون مرة « إن هذا الشيخ لايصلح للرياسة » ولكنه أعاد تعيينه بالديوان ، وقبل مغادرته القاهرة أوصى خلفاءه بالتقرب إلى علماء الأزهر وكسب مودتهم ، وقال فى وصيته : « إذا حصلتم على ثقة كبار المشايخ فى القاهرة كسبتم الرأى العام فى مصر كلها » ووجه رسالة إلى الشيخ الامام ومن معه من أعضاء الديوان حينما غادر مصر نهائيا قال فيها : لاأحمل للمشايخ إلا المديح وحسن الجزاء » .

وعلى الرغم من مهادنة الشيخ الامام للفرنسيين فلم تكن أعينهم غافلة عنه ، فقد اتصل بعلمهم أنه يتلقى رسائل من الخليفة العثمانى ، وقد سأله نابليون فى شأن هذه الرسائل فأنكرها ، يقول الجبرتى : « وكاد ينشأ من هذه المسألة فتنة لولا ألطاف الله تعالى[1] »

ولما قتل كليبر ظن الفرنسيون أن للعلماء ضلعا فى هذه الحادثة فاحتجزوا الشيخ الشرقاوى والشيخ أحمد العريشى ، وألزموهما بإحضار شركاء القاتل الذين اعترف عليهم وصحبوهما إلى الأزهر حتى قبضوا على ثلاثة منهم ، ولم يعثروا على الرابع ، ولما اشتدت الثورة ضد الفرنسيين اعتقلوا الشيخ الامام والشيخ المهدى والشيخ الصاوى والشيخ الفيومى ، وحبسوهم بمسجد سيدى سارية بالقلعة فى الساعة الرابعة من الليل ولكنهم راعوا منازلهم ، فأطلقوا لكل شيخ خادما « يطلع اليه وينزل ليقضى أشغاله ، ومايحتاج إليه من منزله والذى يريد من أصحابهم زيارتهم يأخذ له ورقة بالاذن من القائم مقام[2] ثم أطلقوا سراحهم بعد قليل .

---

(١) مظهر التقديس ص ٦٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٠ .

ومن هذا يتضح أن الشيخ سلك فى أثناء هذه الأحداث مسلكا متزنا راعى فيه وطنه ، كما راعى الأزهر وعلماءه ، ودفع كثيرا من الشر والأذى عن المصريين ، وإذا كان الشيخ السادات وعمر مكرم وغيرهما وقد تزعموا الفريق المتشدد ، والامام الشرقاوى قد تزعم الفريق السياسى فإن وطنية الفريقين كليهما لاشك فيها .

ولهذا ظل الامام الشرقاوى متعاونا مع الفريق الأول ولما تعرض كل من السادات ومكرم لمحنة قاسية تنكر لهما كثير من زعماء العلماء ، ولكن الشيخ الامام الشرقاوى أبى أن يشترك فى عدائهما أو التنكر لهما مع تعرضه للخطر الشديد .

بعد الحملة الفرنسية

رحل الفرنسيون عن مصر ، وقد تيقظ الشعب المصرى تحت قيادة زعمائه من أعلام العلماء ، وعرفت حقوقه وتدرب على مقاومة الطغيان وكان المظنون أن يتمتع بحريته واستقلاله ، ولكنه خرج من طغيان إلى طغيان أشد منه حيث وقع فريسة لقوى عديدة متنافرة ، كل منها تحاول أن تمزقه شر تمزيق وأهم هذه القوى : العسكر العثمانيون ، فريق الانكشارية . فريق الأرناءود (الأليان) ، وكل هذه الفرق تنتمى إلى الخلافة التركية على شدة مابينها من عداء ، ثم فريق الولاة وهم طوائف من الاكراد استجلبها خورشيد باشا ليستغلها ضد الطوائف الأخرى وبخاصة طائفة الاناءود ، وقد أطلق لهم خورشيد باشا العنان فعاثوا فى البلاد فسادا ، وأخذوا ينهبون ويخرجون ويشاركون الناس فى مساكنهم واستباحوا الأعراض ، والناس يضجون بالشكوى إلى الوالى فلا يصغى اليهم ففزع الشعب الى قادته من العلماء فانضم إليه العلماء بزعامة الشيخ الامام والسادات وعمر مكرم والشيخ الأمير ، وقادوا الثورة وانتشر الاضراب فى المدينة وذهب العلماء إلى الوالى فكتب خطابا لزعماء الولاة وأمرهم أن يتركوا البيوت لأصحابها وأن يفرجوا عن النساء المحتجزات ، فلم يصغوا إليه ، وحينئذ اشتدت ثورة الأهالى وغضبهم على الوالى وعلى جنده ، واتجه الولاة إلى قليوب واستولوا على دورها وأحوالها وحبسوا النساء عن الخروج من البلد وقبضوا على كثيرات منهن وباعوهن فى الأسواق ، وفعلوا مثل هذا مع بلدة أبى الغيط من ضواحى قليوب ، وحينئذ امتنع العلماء عن التدريس بالأزهر ، وقادوا جماهير الشعب فى ثورة عارمة وأعلنوا عزل الباشا وتولية محمد باشا واليا مكانه فتظاهر بالامتناع والزهد فى الولاية ، ثم أجابهم إلى طلبهم ، فاشترطوا عليه أن يكون منفذا لسياستهم ، مطيعا لأوامرهم حاكما بالعدل ، ورفض خورشيد باشا قبول العزل

وقال : إننى مولى من قبل الخليفة فلا أقبل العزل من الفلاحين فزحف الشعب بقيادة العلماء الى القلعة وحاصروا الوالى فيها وذهب رسول الوالى إليهم قائلا لهم : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ، وقد قال الله تعالى : « **أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ** » فقال له السيد عمر مكرم « إن أولى الأمر هم العلماء ، وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم وقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شيء من زمان ، حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلونه ويخلعونه ... » واستمر النزاع أياما متطاولة وكثرت الفتن والأحداث حتى اضطر الباب العالى إلى النزول على رأى الشعب وزعمائه وعزل الوالى خورشيد باشا ، ووافق على ولاية محمد على ، وذكر فى قراره سبب الموافقة بقوله : « حيث رضى بذلك العلماء والرعية » وهذا اعتراف صريح بحق الشعب وزعمائه فى اختيار حكامه ، وإن كان محمد على قد استغل ثقة العلماء به فى الوصول لأهدافه ثم تنكر لهم ، واستبد بالحكم والسلطان بعد أن جمع فى يديه كل وسائل القوة والسلطان . وفى أيام الفتنة حضر محمد بك الألفى الزعيم المملوكى الى الزعيمين الكبيرين الشيخ الامام والسيد عمر يستأذنهما فى الحلول هو وأتباعه وجنوده فى جهة يستقر فيها ، فكتبوا اليه أن يختار أى جهة يستريح فيها ويأتى فى الحضور الى القاهرة حتى تسكن فيها الفتنة وتستقر الأمور .

ولما هاجم الانجليز رشيد بعد احتلالهم الاسكندرية فى مارس سنة ١٨٠٧ ـ اجتمع العلماء بزعامة السيد عمر مكرم والشيخ الامام وكبار العلماء ودعوا الشعب الى مقاومة الانجليز ورتبوا شئون الدفاع عن البلد وأرسلوا الامداد والذخائر إلى رشيد حيث قاوم أهل رشيد الحملة الانجليزية بقيادة الشيخ حسن كبريت كبير علماء رشيد ونقيب الأشراف بها ، وألحق بالحملة الانجليزية هزيمة منكرة :

وبهذا استقرت الزعامة الشعبية للعلماء وبخاصة السيد عمر مكرم نقيب الاشراف والشيخ الامام الشرقاوى شيخ علماء الأزهر .

ولكن محمد على استغل خبثه ودهاءه فى خداع العلماء والدس بينهم حتى أوغر صدور بعضهم على بعض .

ولما تم له ذلك نفى السيد عمر مكرم ، وداهن الشيخ الامام وخدعه حتى انتهت حياته ، واستبد بالحكم كل الاستبداد .

روى الجبرتى أن محمد على زار الشيخ الامام فى بيته وقضى معه فترة وكان اثنان من الجند قد لجأ إلى بيت الامام فزعا من محمد على فرجاه فى العفو عنهما وقال له فيما قال : « لاتفضح شيبتى ياولدى ، واقبل شفاعتى وأعطاهما محرمة الأمان فقال له : « شفاعتك مقبولة ، ولكننا لانعطى محارم ، فأنا أمانى بالقول أو أكتب إليك ورقة وأرسلها بالأمان ، ثم أرسل اليه الورقة فقال لهما الشيخ الامام إن الباشا أرسل إليكما ورقة الأمان فأظهرا له مخاوفهما من القتل ، فقال الشيخ لهما : « ذلك لايصح ولايكون فكيف يأخذكما من بيتى ويقتلكما بعد أن قبل شفاعتى » فذهبا مع الرسول فقتلهما محمد على .

وهكذا شأن الطغاة لا عهدلهم ولاأمان .

أخلاقه

كان الشيخ الامام متسامحا متساهلا ، وقد خاض فى حياته أحداثا جساما كان يلقاها بالمرونة والحكمة كما رأينا موقفه من الشيخ الصاوى ، وموقفه من الشيخ الأمير ، وكما حدث فى الفتنة التى قامت بين طائفة من المجاورين بالأزهر من الشرقاويين وطائفة أخرى من المجاورين برواق معمر ، فقد تعصب الشيخ إبراهيم السجينى للآخرين ضد الشرقاويين وحدثت فتنة انتهت بأن رجا الشيخ الشرقاوى وإبراهيم بك فى بناء رواق خاص بطائفته فأجاب طلبه وبهذا انتهت الفتنة بإنشاء رواق خاص للشرقاويين والتوسعة عليهم .

وقد أعانته نزعته الصوفية على الرفقَ والتؤدة والتسامح على الرغم مما قاساه من خصومه وعـــداء وكان كثيرا مايتردد على أضرحة الأولياء للتبرك بهم وبخاصة مسجد السيد البدوى فى طنطا .

ولم يمنع تصوفه من التمتع بطيبات الحياة فإن الاسلام لايحرم الطيبات ولكنه يمنع الاسراف فيها أو الانشغال بها عن عبادة الله .

وذكر الجبرتى أن الدنيا أقبلت عليه ـ بعد الفقر ـ فاشترى دار ابن بيرة بظاهر الأزهر ، وهى من مساكن الأمراء الأقدمين ، وقد دبرت زوجته ـ بنت الشيخ على

الزعفرانى ـ شئونه المالية وقد بدأت حياتها فقيرة مثله ولكنها كانت ماهرة فى الشئون الاقتصادية فترك لها الشيخ تدبير ثروته ، فكانت هى التى تدبر أمره وتحرر كل مايأتيه ويجمعه ، فلما أقبلت عليه الدنيا اشترت الأملاك والعقارات والحمامات والحوانيت ولما زوج ابنه عليا سنة ١٢١٧هـ أقام حفلا كبيرا وأنفق نفقات كثيرة ودعا إليه الوالى والأمراء والزعماء « فاجتمع إليه شيىء كثير من الهدايا ولما حضر إليه الباشا أنعم على ابنه بأربع أكياس عدتها ثمانون ألف درهم ، وذلك خلاف البقاشيش[١]

ونلاحظ أن وفرة ثرائه وكثرة أعدائه أتاح لبعض الألسنة والاقلام النيل منه ، حتى الجبرتى المؤرخ لم يتوقف عن تناول الشيخ الامام بما يمسه فقد ذكر أن أيام رياسته للديوان فى عهد الحملة الفرنسية استفاد بما « يتحصل عليه » من المعلوم المرتب له من ذلك وقضايا وشفعات لبعض الاجناد المصرية وجعالات على ذلك ، واستيلاء على التركات أو ودائع خرجت أربابها فى حادثة الفرنساوى وهلكوا واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها[٢] .

أما المعلوم المرتب له فهذا حقه ، وأما الشفاعات فإننا نعلم أنه شفع فى الجنديين اللذين لجا إليه لدى محمد على وليس لهما مايقدمان إليه ، كما شفع فى زوجة الشيخ السادات فى المحنة التى ألمت بهما ولم يكن لديهما حينئذ مال ، ولجأ إلى بيته الحاج محمد بن قيموا المغربى صاحب الثروة الطائلة خوفا من الفرنسيين وطلبته الرسل فحماه الشيخ ولكنه لم يطمئن على نفسه ففر من بيت الشيخ هاربا ، ولم يكن لديه حين لجوئه مال يدفعه للشيخ الامام .

ثم إننا نعلم أن الشيخ أنفق اموالا طائلة فى اعداد رواق الشرقاويين إكراما لأهالى الاقليم الذى ينتسب إليه ، ونعلم أن جزءا من ثروته يرجع الى الهدايا القيمة التى كانت تقدم إليه لمكانته كما حدث فى حفل زواج ابنه ، ونعلم أيضا أن الفضل فى نمو ثروته يرجع الى تدبير زوجته وحسن قيامها على أمواله .

---

(١) عجائب الآثار ج ٧ ص ١٩٢ .

(٢) المصدر السابق .

ومن المعروف أنه لم يسلم أحد فى هذه الحقبة من ألسنة الناس حتى المشايخ السادات وعمر مكرم والمهدى والدواخلى وغيرهم من كبار العلماء والزعماء مما يجعلنا نتحفظ فى قبول الاتهام .

والشيخ الامام كان يعلم أن الأزهر وديعة فى يديه فكان يهادن أحيانا حرصا على صيانة الازهر من الاحداث الجسام التى مرت بها البلاد ، ولقد كاد الازهر يندثر لولا لباقة الشيخ وحسن تأنيه فى الأمور مع تمسكه بالدعوة الى العدل ووقوفه فى وجه الظلم عدة مرات حتى لقى ربه يوم الخميس الثانى من شوال سنة ١٢٢٧هـ ولقد كان الشيخ الامام ناظرا على وقف وقفته السيدة الخاتون خوند طغاى الناصرية بالصحراء للصوفية والقراء ، وكان الفرنسيون قد دمروه « فأنشا الشيخ به مسجدا وبنى لنفسه الى جواره قبرا وعقد عليه قبة وجعل تحتها مقصورة بداخلها تابوت عال مربع وبنى بجانبه قصرا ملاصقا له »[١] وذكر الجبرتى تاريخ هذا الوقف ثم عقب بنقد الشيخ الامام فقال « لو أنه عمر هذه الخانكاه بدلا من هذا الذى ارتكبه من تخريبها لكان له بذلك منقبة وذكر حسن فى حياته وبعد مماته »[٢] وفات الجبرتى أنه ذكر قبل هذا أن الذين خربوها هم الفرنسيون ، وليس الامام ، كما ذكر أن الشيخ بنى بها زاوية وأنشأ قصرا ، ولم يذكر أنه بناه لنفسه ولعله بناه للصوفية كما كان يحبهم ، وكل ماهناك أنه عد لنفسه مدفنا يدفن فيه بعد موته فلا يستحق أن يكون فيه « لو انه عمر الخانكاه بدلا من الذى ارتكبه من تخريبها ... »

ومهما يكن من أمر فما سلم صاحب مكانة كبيرة من النقد والتثريب وكل ذو نعمة محسد ، وبخاصة بين معاصريه ومعاشريه ، والله أعلم بالسرائر .

مكانته العلمية

كان للشيخ رأى مسموع فى الشئون السياسية كما كان له رأى مسموع فى الشئون الدينية ، فقد كان إثبات هلال شهر رمضان وهلال شوال من شئون القاضى وهو تركى يعينه الخليفة العثمانى ، ويعتبر المرجع الاعلى فى الشئون القضائية وفى تعيين المواقيت ففى سنة ١٢١٧هـ ليلة الاثنين كانت مظنة نهاية شهر رمضان فتعذرت رؤية الهلال وكان

---

(١) عجائب الآثار ج ٧ ص ١٩٤ .
(٢) عجائب الآثار ج ٧ ص ـ ١٨٩ ـ ١٩٧ .

بالسماء غيم مطبق ومطر ورعد وبرق متواتر فأعلن القاضى أن يوم الاثنين يعادل الثلاثين من شهر رمضان ولكن حضر جماعة من دمنهور وزعموا أنهم رأو هلال أول رمضان ليلة السبت وبهذا يكون يوم الأحد هو نهاية رمضان . وذهبوا الى بيت الباشا فأرسلهم الى القاضى فرد شهادتهم ، فذهبوا الى بيت الشيخ الشرقاوى فقبل شهادتهم ، وأخذ بها وألزم القاضى بقبولها أخذاً بقول شاهدين عدلين وبقوله صلى الله عليه وسلم صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » وكانت وجهة نظر القاضى أنه يترتب على قبول الشهادة أن رجب ٢٨ يوما وشعبان ٢٩ يوما ، ووجهة نظر الشيخ الامام أن الخطأ وقع فى شهر رجب ، وأننا مقيدون بما ثبت شرعا من الصيام لرؤية الهلال والافطار لرؤيته .

ومهما يكن من أمر فإننا نأخذ من هذا قوة شخصية الامام وجهره بما يعتقده حقا وإلزامه القاضى الذى لايخضع إلا لرأى الخليفة بما رآه الامام وقد نزل الوالى على رأى الشيخ الامام .

والجبرتى ـ على الرغم من تحامله عليه أحيانا ـ لم يستطع أن يجحد فضله ، فقد ذكر فى ترجمته له أنه [1] « الشيخ الامام العلامة والتحرير الفهامة ، الفقيه الأصولى النحوى شيخ الاسلام والمسلمين ... » ثم يذكر أنه أفتى فى مذهبه أى تبحر فيه حتى بلغ مرتبة الافتاء ـ وتميز فى الالقاء والتحرير ـ أى فى التدريس والتأليف ـ « ثم سرد مؤلفاته ، وذكر أنه لما مات صلى عليه بالأزهر جمع كثير ودفن فى مدفنه الذى بناه لنفسه ، وأن الباشا (الوالى) أصدر فرمانا بعمل مولد سنوى له ، واحتفى الناس بهذا المولد ، وأقامو فيه الموائد ومدوا الأسمطة وحضره جمع كبير من الفقهاء والمشايخ والأعيان وأرباب الأشاير (رجال الطرق الصوفية) .

مؤلفاته

١ ـ التحفة البهية فى طبقات الشافعية ضمنه تراجم الشافعية حتى سنة ١٢٢١ هـ

(١) عجائب الآثار جـ ٧ صـ ١٨٩ ـ ١٩٧ .

ورتبه على حروف المعجم ، وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٥٧٨ تاريخ.

٢ ـ العقائد المشرقية فى علم التوحيد .

٣ـ الجواهر السنية فى شرح العقائد المشرقية ـ السابق ذكره ـ وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب رقم ٢٣١١٩ ب .

٤ ـ حاشية الشرقاوى على كتاب التحرير للشيخ أبى زكريا الأنصارى توجد من الجزء الثانى منه نسختان بدار الكتب رقم ٢١٧٩٩ ب ، ٢٣٧٦٣ ب ـ فقه الشافعى .

٥ ـ حاشية على شرح الهدهدى على أم البراهن المسماة بالصغرى لأبى عبد الله ابن يوسف السنوسى ، توجد منه نسخة خطية بدار الكتب رقم ٢٢٩٣٢ ب ـ توحيد .

٦ ـ شرح حكم ابن عطاء الله السكندرى ، منه نسخة خطية بدار الكتب رقم ٢٣٨١٨ تصوف .

٧ـ ثبت الشرقاوى ذكر فيه أسانيد شيوخه فى التفسير والحديث والفقه وفى الأحزاب والأوراد ، توجد منه أربع نسخ خطية بدار الكتب ، منها نسخة بخطه رقم ٤٦٨ مصطلح الحديث .

٨ ـ مختصر الشمائل وشرح المختصر كلاهما من تأليفه .(١)

٩ ـ رسالة فى « لا اله الا الله »

١٠ ـ « فى مسألة أصولية فى جمع الجوامع (أصول الفقه) .

١١ ـ شرح رسالة عبدالفتاح العادلى فى العقائد .

---

(١) هذا الكتاب وما بعده إلى رقم ١٥ أشار إليها الجبرتى فى ترجمته للمؤلف .

١٢ ـ شرح مختصر فى العقائد والفقه والتصوف مشهور فى بلاد داغستان .

١٣ ـ شرح الحكم والوصايا الكردية فى التصوف .

١٤ ـ شرح ورد السحر للبكرى .

١٥ ـ مختصر مغنى اللبيب لابن هاشم فى النحو والاعراب

١٦ ـ فتح المبدى شرح مختصر الزبيدى فى الحديث طبعت منتخبات منه ومن شرح الشيخ الغزى على هامش كتاب التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للبخارى .

١٧ ـ تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين مطبوع على هامش على كتاب لطائف الأول فيمن تصرف فى مصر من الدول .

ومن هنا نرى غزارة علوم المؤلف وتنوعها على الرغم من التيارات السياسية العنيفة والخصومات العاتية التى خاض المؤلف غمارها .

ومع هذا نرى الجبرتى ينال من الشيخ الامام بما يمسه مسا عنيفا فى مؤلفاته فقد ذكر فى تعليقه على كتاب الامام « التحفة البهية فى طبقات الشافعية » أن المؤلف نقل تراجم القدماء عن طبقات السبكى والأسنوى ، ونقل تراجم المتأخرين من كتابه « عجائب الآثار » ـ كما وصف كتابه تحفة الناظرين » بأنه فى غاية البرود وأنه حافل بالأخطاء » .

ولعل المعاصرة والمنافسة العلمية جنحت بالجبرتى الى النيل من الشيخ الامام ، وان كان قد أنصفه فى بعض المواقف وليس معنى هذا أن الشيخ الامام فوق النقد والملاحظة وسبحان من تفرد بالكمال .

ومع أن الشيخ الامام ألف مصنفات عديدة متنوعة فإنه ألف رجالا من أعلام العلماء وهذا يذكرنا بأن العلامة الشيخ جمال الدين الأفغانى سئل عن سبب إقلاله من التأليف فقال لقد ألفت رجالا .

ومن الرجال الذين ألفهم أو خرجهم الامام الشرقاوى : الفقيه النبيه الشيخ حسين ابن الكاشف الذى جذبه الشيخ إليه فانخلع من الامارة والقيادة العسكرية ولازم الشيخ وتفقه على يديه .

ومنهم العلامة الشهير ابراهيم البجيرى الذى تخصص عليه فى مصطلح الحديث .

ومن ألمعهم العلامة العمدة الشيخ محمد الدواخلى الذى لازم الشيخ الامام فى فقه مذهبه وغيره من المعقولات ملازمة كلية وانتسب له وصار من أخص تلاميذه .